الشعور الدينى عند الطفل*

بقلم
عبد المنعم عبد العزيز الملیجی
مدرس الفلسفة بحلوان الثانوية

الدين هو تكريم الضمير النقي للعدالة الإلهية
لاتقديم القرابين وتلاوة الصلوات مع تلطخ
النفس بالإثم (سقراط)

١

الشعور الدينى والعقيدة الدينية :

عند ما نتحدث عن الدين نخلط بين أمرين متمايزين ، أولهما : الدين من حيث هو شعور معقد قوامه إحساس غامض بالتبعية لقوة خفية ذات سلطان مطلق ، تسيطر على كل شيء ، وتكمن خلف مظاهر الكون المتغيرة البادية للعيان . وثانيهما : الدين من حيث هو نظرية أو عقيدة ، ومجموعة من التعاليم العقلية تستند إلى الشعور الدينى . على هذا الأساس يكون الشعور الدينى لدى المسلم واليهودى والمسيحى والبوذى ، لدى الطفل والبالغ ، لدى الإنسان البدائى والإنسان المتمدن ، واحداً فى جوهره . وما يختلف فيه هؤلاء فيما بينهم هو العقيدة التى تتكون كاستجابة للشعور الدينى الأصيل فى نفوسهم جميعاً .

فالرجل البدائى يبدهه عديد من ظواهر الطبيعة يستوقف النظر ويدعو إلى التأمل دون أن يقدر على تفسيرها تفسيراً حقيقياً . فالعواصف تطوح بمسكنه ، والبرق يخطف الأبصار ، والمطر ينهمر بقوة لا تدفع ، والظلام يغمر كل شيء ، والموت ينزل بالمخلوقات فيخرسها ويسكتها سكوتاً أبدياً ، والميلاد يأتى إلى العالم بمخلوق جديد من حيث لا يدرى ولا يحتسب . أمور تثير العجب والدهشة ، ولما كانت تمتاز بطابع القوة والحتمية ، وكانت بعيدة عن متناول يده وإدراكه ، فإنه يتوجس منها خيفة قد تصل

* سنعرض للشعور الدينى عند المراهق في العدد القادم من المجلة .

أحياناً حد الرعب والفزع . بيد أن البدائى رغم خشيته منها ، فانه يعجب بها وبقدرتها ، ولجهله بحقيقتها وعلتها ، ينسبها إلى علة خفية لا يدرك كنهها ولكنه يعلم فحسب أنها قوة نفسية لا مادية ، تحل فى كل ما هو قوى مخيف . وهو مع خوفه من هذه القوة المدبرة يشعر بالحاجة إليها ، ومن هنا كانت الطقوس لاتقاء شرها واستجلاب خيرها ، وكان تقديم القرابين والسحر لتحقيق هذين الغرضين . وأخيراً كانت محاولات عقلية لتفسير الظواهر وتحديد طبيعة القوة المدبرة لها ، فكانت المذاهب الدينية أو العقائد .

والناظر إلى تاريخ البشرية يدرك أن الشعور الدينى واحد فى جوهره لدى البشر جميعاً رغم اختلاف عقلياتهم وعقائدهم النظرية . وهو لم يتغير فى أيامنا عنه فى أيام البربرية الأولى : فلا نزال رغم الكشوف العلمية المتقدمة نحس أن ما نجهل ليس بأقل مما نعلم ، ولا تزال تنبعث فينا الرهبة من هذا المجهول ، وتغمرنا الروعة من نفس الموضوعات التى كانت ترتعد منها فرائص البدائى ، كالمرض ، والخطيئة ، والموت ، والميلاد ، والأرواح الشريرة . ولا نزال نستشعر الحاجة إلى قوة روحية تزيح عنا كابوس القلق النفسى المعذب ، ونشعر بالتبعية لهذه القوة ؛ ولا يزال الأمل يداعبنا إذا ما تأزمت الأحوال وحلت بنا النكبات ، وأثقلتنا تكاليف الحياة ، أن تتدخل هذه القوة الخفية التى « لا تأخذها سنة ولا نوم » فتدبر لنا الأمر ، وتنتقم لنا ، وتفكر من أجلنا ، فنستعيد الثقة بقيمة الحياة . ويبين لنا التاريخ كذلك ، أن العقيدة لم تظهر فى حياة البشر إلا فى مرحلة متأخرة من مراحل تطورهم وبعد أن بلغوا حداً معيناً من التطور الاقتصادى والاجتماعى والعقلى . أى أن العقيدة إنما هى مظهر من مظاهر الشعور الدينى ذلك الشعور الذى لا يتغير لأنه يستند إلى الميول الفطرية العامة المشتركة بين الجنس البشرى ، فى حين أن العقيدة تتفاوت لارتباطها بالعقلية الإنسانية المتطورة النامية على الدوام .

* * *

لو تتبعنا تاريخ الفرد من الطفولة إلى البلوغ عبر المراهقة ، ألفينا التطور الدينى يطرأ على نحو التطور الدينى فى تاريخ البشرية . وأن ظهور العقيدة رهن بتطوره العقلى ونضجه الوجدانى . وحتى هذه الناحية الذهنية من الشعور الدينى ، لا تتولد من البحث المنطقى الهادئ ، أو التفكير غير المتحيز ، ولكن العقيدة فى غالب الأمر تكتسب اكتساباً لاشعورياً من المجتمع المسيطر على شخصية الفرد . فالعقيدة أو النظرية الدينية ترضى دوافع المرء وميوله قبل أن ترضى منطقه ، وهى تتغير تبعاً لتغير

ميوله وأذواقه ومثل المجتمع الأخلاقية .

وإنا إذ نتحدث هنا عن الدين لا نقصد به غير المعنى العام أى الشعور الدينى ، ولا نقصد أبداً أن نناقش العقيدة النظرية من حيث هى إذ أننا نقدس العقائد الدينية جميعاً ونعتبرها أموراً فوق البحث ، وما يهمنا هو أن نتفهم الناحية الوجدانية للدين كما تتطور فى نفسية الفرد . ونكتفى فى هذا المقال ببحث الدين عند الأطفال .

ونحب أن نشير قبل البدء فى دراستنا إلى أمرين ، الأول : أننا اعتمدنا فى الوصول إلى النتائج على الطريقة التجريبية ، أعنى الاتصال الشخصى بالأطفال ومناقشتهم منفردين ، وتحليل أحاديثهم ؛ وعلى الاختبارات الجمعية أحياناً ، والاطلاع على عدد غير قليل من مذكرات المراهقين فيما يتصل بتطورهم الخلقى والدينى ، وعلى إجاباتهم على أسئلة متصلة بهذه الناحية ضمن استخبار « دراسة نفسية المراهقين فى مصر والشرق العربى » الذى وضعه أستاذنا الدكتور يوسف مراد ونشره فى عدد سابق من أعداد هذه المجلة .

الأمر الثانى أن تطور الشعور الدينى لا ينفصل عن التطور العام للشخصية الإنسانية وجدانياً وعقلياً وجنسياً وجسمياً . فالروح الدينية كما يتبين من التحليل النفسى نتيجة تطور معقد طويل يدخل ضمن التطور الشامل للنفسية الإنسانية . وهى ككل حركة من حركات طبيعتنا ذات طابع اجتماعى . ذلك أن أساسها ليس هذه المجموعة من الميول الفطرية فحسب بل هى نتاج هذه فى تفاعلها مع مختلف عوامل المجتمع من عادات وتقاليد وعواطف . ومن ناحية أخرى نرى الناس من دين واحد يجتمعون للمشاركة فى حرارة الإيمان ، ويؤكدون إخلاصهم وتفانيهم فى سبيل مثلهم الأعلى الذى يبلور عقيدتهم ؛ ولذلك كانت الروح الدينية تتطلب حتماً كنيسة أو مسجداً ، وحيث وجدت كنيسة أو مسجد ، تمت شعائر وطقوس تكون بمثابة تقاليد تمارس باعتبارها رموزاً روحية . وهكذا مهما بدا أن العقيدة الدينية نتاج عبقرية روحية فهى فى حقيقة الأمر نتاج اجتماعى له أكبر الأثر فى سلوك الفرد وارتباطه بجماعته .

الدين فى الطفولة

إن الناس هم الذين استحدثوا الآلهة وأضافوا إليهم عواطفهم وصوتهم وهيئتهم ، فالأحباش يقولون عن آلهتهم إنهم سود فطس الأنوف ، ويقول أهل تراقية إن آلهتهم زرق العيون حمر الشعور ، ولواستطاعت الثيرة والخيل لصورت الآلهة على مثالها وقد وصفها هوميروس وهزيود بماهى عند الناس موضوع تحقير وملامة . »
(أكسانوفان)

الطفل ميال بطبيعته إلى والديه ، ابتغاء الأمن والراحة والغذاء والوقاية ، وهو يعتبر والده مثلا أعلى يحتذى به ، يخشاه لقوته ويحبه لعطفه عليه ويعجب به لقدرته . وينسب الطفل إلى والديه المعرفة الكاملة والخير الكامل والقدرة المطلقة (وهى نفس الصفات التى ينسبها المتدين البالغ إلى الله) . ولذلك كان من الطبيعى أن يتقبل ما يصدر عنهما من أوامر ونواه ، ويمتص مثلهما العليا وأحكامهما على الأشياء . ومن بين هذه وتلك ، موضوعات الدين وأحكامه ومفهوماته ، كالملائكة والله ، والجنة والنار ، الخ . . . فالمصدر الأول لخبرات الطفل الدينية هو البيئة المنزلية فالمدرسية . ومما يساعد على تقبل الطفل لخبرات الدين ميل قوى إلى الاستطلاع يتبدى فى تلك الأسئلة المتوالية التى يوجهها إلى والديه بغية استكناه أسرار الكون ، ومن بينها ما يتصل بالدين . فنراه عندما يبلغ الثالثة من عمره يسأل عن الميلاد والنمو والموت ، وأين يذهب الفرد بعد موته ومن أين أتى ومن أتى به ، ومن الذى ينميه ، فيقال له الله ، فيسأل : ومن الله ؟ وما شكله ؟ وأين يوجد ؟ وكيف السبيل إليه ؟ وقد يتقبل الطفل أجوبة الكبار على هذه الأسئلة مرتضياً إياها ، ولكنها تكون فى غالب الأمر غير مقنعة فيتقبلها مؤقتاً بينما عوامل الشك تفتعل فى نفسه ، وتظل الأسئلة تدور فى ذهنه ، حتى يفصح عن شكوكه فيما بعد . والخلاصة أن الشعور الدينى والمفهومات والتفسيرات الدينية يستقيها الطفل من بيئته ، مما يسمعه من أجوبة على أسئلته ، وما يلقى عليه من قصص عن الأنبياء ومعجزاتهم وجهنم والملائكة وحكايات تصور عاقبة العاصين أمر الوالدين ، والكذابين ، ومصير المطيعين الصادقين .

فيما يلى أسجل حديثاً دار بينى وبين طفل فى الخامسة والنصف من عمره يكشف فى وضوح عن وجدان الطفل الدينى وفهمه لموضوعاته :—

سألته : ربنا فين ؟ فأجاب : فوق (وأشار بيده إلى أعلى) .

— فوق فين ؟

— هو يشوفنا ، إحنا مانشوفوش .

— بايه يشوفنا ؟

— بعينيه .

— له عين ؟ .

— الطفل : أمال إيه . هو مش بنى آدم . .

— شكله إيه ؟

— مالوش شكل يا أخى . البنى آدم هو اللى له شكل ، أما هو لأ . يوم القيامة نشوفه . »

فبادرته بالسوال : « ويوم القيامة يبقى إيه ؟ فأجاب :

— شوف ، يوم القيامة يودوا الناس اللى شتموا ، ويخلوا اللى ماشتموش . فى الآخرة ربنا يصفر ، يقوم كل الناس الميتين وإحنا كمان . إحنا حانموت كلنا عشان لما تقع الطيارات كل يوم يبقى حانموت . (يلاحظ أن الطفل يربط بين فكرة الطيارات وفكرة الموت وأن ما يحسه من رعب من الموت ناتج عن رعبه من الطيارات إذ قضى طفولته فى مدينة الإسكندرية أثناء الحرب الأخيرة وحضر جميع الغارات الجوية وشاهد آثارها (ولا شك أنها تركت فى نفسه أثراً سيئاً يبدو فى خلطه بين الموت والطائرات) فسألته :

— طيارات إيه : فأجاب

— لما يقعوا كلهم نموت .

— وإيه اللى يوقعهم ؟

— انبمب ، مش فيه إنجليز يضربوا علينا ؟

الجنة والنار :

وانتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن الجنة والنار . سألته :

— حانروح الجنة أم النار ؟ فأجاب بعد تردد :

— مانعرفش .

— من يروح الجنة ، ومن يروح النار ؟

— اللى يشتم يروح النار واللى مايشتمش يروح الجنة . يأكل فواكه ، وتفاح وكله . مافيش حد يقول له إنت بتاكل من دى ليه ؟

— والنار ، شكلها إيه ؟

— زى الفرن (بجوار منزل الطفل مباشرة فرن ، مخبز ، يراه طفلنا فى ذهابه وإيابه)

— الفرن ده يكفى كل من شتم ؟

— آه ، عشان واحد واحد يدخلوه . عارف الإنجليز لما يضربوهم العساكر يبقى الرغيفين بقرش بدل الرغيف بقرش . (ثم يشير إلى نظارتى) ويقول : « مش دى بتسعة جنيه ، لما يخرج الإنجليز تبقى النظارتين بتسعة جنيهات » .

(هنا يربط بين فكرة العقاب بالنار وفكرة الإنجليز ولعله يتصور النار والأذى على نحو تصوره لقنابل الإنجليز وما سمعه عنهم من إيذائهم للمصريين وإطلاق النار عليهم فى حوادث الإسكندرية فى العام الماضى) .

وسألته بعد ذلك :

— أنت تحب تشوف ربنا ؟ فهز كتفيه قائلا :

— وأنا أشوفه منين . دا يوم القيامة .

— تحب تشوفه الوقت ؟

— أمال إيه . .

— ليه تحب تشوفه ؟

— كده .

— كده ليه ؟

— عشان الإنجليز حايموتونا . (إجابة توضح كيف أن فكرة الله عنده لا تعدو أن تكون فكرة المنقذ من شرور لا يستطيع دفعها ، وأن الشعور الدينى يحقق للطفل الأمن الذى يفتقر إليه ويحقق له رغبات تعوزه) .

— ولما نشوف ربنا ، مش حيموتنا الإنجليز ؟

— لأ ، عشان ربنا يموتهم هم بقى .

— يموتهم إزاى ؟

— عنده بندقية كبيرة قوى ، يروح ينزلها فى مصر ، عشان فيه إنجليز كثير ، ويروح ضارب « بم » يروحوا ميتين .

الملائكة :

سألته :

— تعرف شكل الملايكة ؟

— أمال إيه ؟ . أعرفهم ، هم فوق برده مع ربنا ، واحد للنار وواحد للجنة . يكون واحد شتم ربنا ينادى بتاع النار ، عنده سلسله يروح رابطه فى رقبته ويشده . بتاع الجنة يمسكه ويوديه على الجنينة ، يروح يقطف ويأكل .

(لاحظ وجود فكرة الثواب والعقاب وكيف أنها تتفق مع ما يراه هو ثواباً وعقاباً بالنسبة إليه فى هذه المرحلة ، التى يكون فيها أعز أمنية إشباع نهمه للطعام — ولاحظ أيضاً كيف يتصور المفهومات الدينية تصوراً حسياً كتصوير الكتب المنزلة لها) .

— عارف شكل الملاك ؟

— لما ينزلوا هنا نعرف . بتاع النار أسود خالص خالص . بتاع الجنة أبيض شكله جميل . بتاع النار زى البواب .

(يتصور ملاك النار على صورة بواب قريب من منزله أسود اللون ذى شكل يخيفه) .

— تحب ربنا ؟

— أمال إيه . أكثر من الناس كلها .

— ليه ؟

— عشان هو بيأكلنا وكل حاجه .

فأحببت أن أعاكسه فقلت :

— « دى ماما اللى بتأكلك . » فأجاب غاضباً ملوحاً بيديه :

— مش هو اللى يجيب الأكل ، ويحدف لنا الفلوس كمان ؟ . ربنا يعطى الناس يبيعوا وإحنا نشترى منهم .

(هنا يبدو ثانية أن الطفل يحب الله لأنه يحقق له نفس الرغبات التى يحققها له الأب ولهذا كان هناك ارتباط وثيق فى نفس الطفل بين فكرتى الأب والله ، كما كان الحال لدى الشعوب البدائية التى تقدس الأب الأكبر للقبيلة على اعتبار أنه الإله أو تتصور الإله على اعتبار أنه الجد الأكبر للقبيلة .)

الخلق والميلاد :

تطرق الحديث بعد ذلك إلى فكرة الخلق وفكرة الميلاد . وساعدنى على إثارة هذا الموضوع أن طفلنا رزق منذ زمن قليل أخاً جديداً أثار ميلاده فكر هذا الطفل . سألته :

— من الذى خلقنا ؟

— ربنا .

— خلقنا إزاى ؟

— وأنا أعرف ؟ . لا أعرف .

— يعنى إيه خلقنا ؟ (سألته هذا السؤال لأرى مدى فهمه لمعنى الخلق) .

فاستغرق فى تفكير صامت لحظة طويلة أجاب بعدها :

— ما أعرفش .

وآثرت أن أواصل بحث هذه النقطة فقلت له معترضاً :

— أمال ليه تقول إنه هو خلقنا ؟

— ما نعرفش هو خلقنا إزاى .

(ورغم إلحاحى عليه فى السؤال فما أسفر ذلك عن شىء مما يدعو إلى الاعتقاد أن الطفل فى هذه السن قد يردد فى حديثه كثيراً من الألفاظ الدينية ، دون أن يعى ما تتضمنه من معنى فكثير من الكلمات الدينية ليست عنده سوى ألفاظ جوفاء لا تعنى شيئاً) .

وانتقلت من فكرة الخلق بعد أن ثبت عجزه عن فهمها إلى فكرة الميلاد فقلت له:

— شفت أخوك لما اتولد ؟ مين اللى جابه ؟ فأجاب :

— الدايه (يقصد القابلة) .

— من أين ؟

— من بطن ماما .

— وإيه اللى وضعه فى بطن ماما ؟

— ربنا . قالت له ماما يا رب جيب لى ولد صغير .

— إزاى ربنا وضعه فى بطنها ؟

— ربنا يبعث لنا أكل كثير . ويجيب لنا فلوس نشترى بها فراخ وأكل نأكله .

— الولد جاى من الفراخ ؟

— أيوه ، مش هو (أى الطفل الصغير) وجد الأكل قام كبر . ؟

(يتبين أن الطفل لم يفطن بعد إلى أن علاقة الأب التناسلية بالأم هى علة وجود الطفل ، بل لا يزال فهمه ساذجاً لم يتعد الاعتقاد أن الأكل هو العلة القريبة للميلاد ، ولكنه لا يغفل رغم هذا التفسير بالعلل القريبة عن أن الله هو العلة البعيدة .

ويتبين أن هذا الطفل فى تفسيره للظواهر يعتبر ناضجاً إذا قيس بغيره إذ أنه لا يقحم الله فى تفسير الظواهر إلا بعد أن يحاول الإتيان بتفسيرات قريبة فإن عجز عن التفسير القريب لجأ إلى فكرة الله) .

الموت :

— بعد ما نموت نروح فين ؟

— فيه بحر مافيش فيه ماء — فيه تفاح . التفاح ده ، يوم القيامه يعطيكوا التفاح ده . اللى فى النار يقوم ما يأخدش .

(عود إلى فكرة الثواب والعقاب متصورة تصوراً حسياً صرفاً)

— ساعة الواحد ما يموت على طول يودوه فين ؟

— لما يكون واحد بيشتم كتير يموته ربنا ويودوه التربة ، يحطوا عليه التراب ، والدود ياكله . واللى ما يشتمش ومات يروح الإسعاف ، يشربوه دواء لغاية ما يقوم . ما ياكلوش الدود .

— يعنى اللى ما يشتمش ما يموتش ؟

— اه ربنا يخليه صاحى .

(يكشف حديث الطفل عن الموت عن حقيقة هامة هى أنه لا يتصور تصوراً واضحاً فكرة البعث . فهو يتحدث عن الجنة والنار ويصفهما وفق الوصف الذى يسمعه من الكبار المحيطين به . ولكن كلماته الأخيرة كشفت عن فهمه الخاص للثواب والعقاب . فالعقاب فى نظره هو الموت . فالله يعاقب بالموت وتفسير ذلك أن الطفل لا يفهم من الموت سوى الناحية الظاهرة وهى الدفن والاختناق تحت التراب ، والتعرض لنهش الديدان ، إلى آخر هذه الأمور التى تكفى بنفسها كى تكون عقاباً صارماً لمن يخالف الله أو بالأحرى لمن يخالف أوامر الوالدين « فيشتم ويكذب الخ . . » ولهذا يقول الطفل إن من لا يشتم ينقذه الإسعاف من الموت . وهكذا كان موقف الطفل من الموت مستمداً من موقف الكبار منه ، أعنى موقف الرعب والفزع . وكان موقفه من الخلود موقف الكبار منه ، أعنى الرغبة إليه والتشبث به) .

صفات الله :

لا أريد أن أستخلص السمات العامة التى تميز الشعور الدينى فى مرحلة الطفولة قبل أن أعرض حديثاً آخر دار بينى وبين طفل آخر فى الثامنة من عمره ، من بيئة

تخالف كل المخالفة بيئة الطفل الأول . وله ظروف مخالفة ، منها : أن والده متوفى ، وليس له سوى أخت واحدة وتكفله أمه الفقيرة ، كما أنه يدرس فى مدرسة فرنسية رغم كونه مسلماً . عرضت عليه أولا قائمة من الأسماء وطلبت منه أن يتخير منها أنسب خمسة يمكن أن تطلق على الله ، مرتباً إياها حسب الأهمية[١] . وفيما يلى القائمة برمتها :

الحاكم — القاضى — الصانع — الروح — الأب — الجبار — الحب — الإنسان — القوة — الملاك — الخالق — الكائن الكامل — المارد — الحامى — البوليس — المعين — المسيح .

وقد اختار الطفل الأسماء التالية مشفعاً كلا منها بتفسير قصير أنقله حرفياً :—

١ — الحاكم : لأنه مثل الرئيس وأكبر واحد فينا وخالقنا .

٢ — الأب : أبونا لأنه أكبر واحد وأحسن واحد فينا ، ولأن كل الناس تعبده ، وعشان خالق لنا أمنا وأبونا .[٢]

٣ — روح : عشان مافيش واحد يشوفه ، يعنى موجود فى كل حته ، فى الحجرة وأمامنا : هو يشوفنا ، إحنا مش نشوفه . (يتبين أثر التلقين فى هذه العبارة ، خاصة فى قوله إن الله موجود فى كل مكان ، وقد تبينت أن مصدر كثير من أقواله أمه أو ما يسمعه فى المسجد أو فى إحدى الجمعيات الدينية التى يتردد عليها من وقت إلى آخر ، وعند ما توغلت فى المناقشة معه تبين أن معظم مفهوماته ألفاظ لا يفقه لها معنى وسرعان ما كان يقع فى التناقض نظراً لعدم وضوح هذه المفهومات فى ذهنه وتقبلها له عن طريق المحاكاة العمياء .)

وقد استوضحته كيف يوجد الله فى كل مكان فأجاب : أصله مش موجود بلحمه أمامنا (أى أنه نفى عن الله صفة الجسمية والمكانية .)

٤ — الخالق : يعنى خالق الدنيا والناس كلهم وحده ، مافيش حد كان معه يساعده . (سألته : « يعنى إيه خالق الدنيا ؟ » فأجاب « عمل الناس زى إحنا ما نصنع حاجة » .

٥ — ملاك : عشان أصله مش زى الرجاله ، زى الولاد يجرى ويسرق وينهب — هو لو عايز كل حاجة تبقى موجوده ، عشان كده يسموه ملاك . (بهذه الكلمات لم

---

(١) أخذت هذه التجربة بعد تعديلها لتلائم الظروف الموضوعية كتاب Elizabeth Hurlock Child Development الفصل الثالث عشر وأضفت إليها أن يشرح الطفل معنى الإسم الذى يختاره ويبين علة اختياره له . (٢) يلاحظ أن أباه متوفى .

يفعل الطفل أكثر من أنه نفى صفات الإنسانية عن الله فألصق به لفظ ملاك . سألته « ما شكل الملاك » ؟ فقال : « له أجنحة ، يطير ، وروح برضه ماحدش يشوفه .) تناقض بين : سبق قوله إن الله لا يرى ثم قال إنه بأجنحة ، وإنه يطير ولذلك بادرته بقولى :

— إزاى يكون ربنا روح ماحدش يشوفه ، ويكون ملاك له أجنحة ؟ فأجاب :

— هو ملاك ماحدش يشوفه ، هو وراءك ماسكك ، يغطس ماتشوفوش .

— أنت تحب تشوفه ؟

— طبعاً ، لكن ما أقدرش .

— مش كان أحسن يبان لنا ؟

— هو مش عايز إلا فى يوم القيامة .

— ليه ؟

— عشان لو نشوفه ، نقول إنه مش حاجة . لكن لو مانشوفوش نعبده .

بذلك ينتهى شرح الطفل للصفات الخمس الرئيسية التى اعتبرها أكثر الصفات دلالة على الله . ولكننى لم أكتف بذلك إذ تبينت فى الطفل اهتماماً بالموضوع واستعداداً للمضى فيه . فطلبت منه أن يذكر لى صفات أخرى يرى أنها متحققة فى الله . وبعد لحظة تأمل قصيرة قال بالفرنسية :

— qui est infiniment parfait, éternel (أى اللا متناهى الكامل الأبدى .)

قد نعجب لذكره هذه المجموعة من الصفات التى لا ترد إلا على ألسنة الفقهاء ورجال الدين ولكن يزول العجب حينما نكتشف أنه لا يدرك معناها إنما يردد ألفاظاً وعاها عن والدته التى تجيد الفرنسيه ، أو عن أستاذه بمدرسة الفرير كما يتبين من المناقشة التالية :

— يعنى إيه éternel (أبدى) ؟

— يعنى مش كافر ، يعلم كل حاجة تجرى فى الأرض والسماء ، ثم ذكر صفة جديدة لله وهى أنه مؤمن (وهذا تناقض بين يكشف عن الارتباك الذى تحدثه التربية الدينية المتزمتة فى ذهن الطفل) .

عرجت معه بعد ذلك إلى حديث الجنة والنار :

— إمتى ربنا يوديك الجنة ؟

— لما ما أقولش كلام قباحة ، ما أشتمش أمى ، ما أسرقش ، ما أنصبش .

(أليست هذه هى النواحى التى يلح الوالدان دائماً على أطفالهم بتجنبها ، مستعينين على ذلك بالترهيب من عقاب الله ونار جهنم ، والترغيب بثواب ونعم الجنة . وذلك يبين لنا الارتباط الحتمى بين النمو الخلقى ونمو الوجدان الدينى وأحد مظاهر هذا الارتباط امتزاج فكرة الله بفكرة الأب كما أسلفنا)

ووصف الطفل للجنة بأن « فيها أشجار ، وكل حاجة عايزها تلاقيها . مثلا تفاح ، موز وكل الفاكهة » .

(إنه يتصور الجنة على اعتبار أنها المكان الذى تتحقق فيه رغباته التى لا سبيل إلى تحقيقها فى الواقع ، فالدين إذن يؤدى وظيفة نفسية هامة للطفل ، ذلك أن الله والجنة كلاهما مصدر أحلام يقظة سعيدة ، وملجأ هام يهرع إليه الطفل بخياله حين يذوق مرارة الحرمان ويعز عليه تحقيق رغباته .)

أما عن جهنم فانى ما أن سألته أن يصفها لى حتى أجابنى فى تضجر ظاهر :

— ما تفلقنيش بجهنم ، فيها نار وعفاريت ، كل حاجه وحشه ، مش عايز أفتكرها .

(عبارة مشحونة بانفعال الخوف ، تبين لنا أن التفكير الدينى لدى الطفل قد يصطبغ بعنصر انفعالى قوى فالنار تثير خوفه ومجرد ذكرها يثير لديه سلسلة من الذكريات المفزعة ، وذكر الجنة يعيد إليه الطمأنينة ويتيح له فرصة الجولان الخيالى فى شعابها وبين أغصانها الوارفة يقطف منها ما يشاء من لذيذ الطعام الذى لا ينال منه كل ما يشتهى فى عالمنا الواقعى القاسى الذى لا يعير كبير اهتمام برغبات الطفل الجشعة التى لا تحد .)

اختبار جمعى

آثرت ألا أستعين فى بحثى بالحديث الفردى مع طفل بالذات فقد تكون له ظروفه الخاصة ، فعمدت إلى الاختبارات الجمعية التى تمكننى من استخلاص السمات العامة التى يشترك فيها عامة الأطفال فى مرحلة بعينها من مراحل النمو النفسى . دخلت فصول (فرق) إحدى مدارس البنات الابتدائية وراعيت أن تكون الفرق تضم أطفالا تعدوا مرحلة الطفولة الباكرة وتتراوح أعمارهم بين ثمانية وثلاثة عشر عاماً . وكان عدد التلميذات اللاتى قدمن إجابة مكتوبة حوالى خمسين كتبت لهن الأسئلة التالية :

١ — لماذا تكرهين الكذب ؟ (كانت جميع الإجابات باستثناء ثلاث أو أربع

تكره الكذب لا لشىء إلا لأنه محرم أو لأنه يؤدى بصاحبه إلى النار أو لأنه يغضب الوالدين ، « لأن الله نبهنا إلى ذلك » ؛ فليس الكذب مرذولا فى ذاته ولكنه كذلك لأن عاقبته أذى .

٢ — هل تحبين الله أم تخافين منه ولماذا ؟ (أجابت غالبية التلميذات بأنهن يشعرن نحوه بالحب والخوف معاً وعللن ذلك بأمور محفوظة : فهن يحببنه لأنه خلقهن ، و « لأنه يطعمنا ويسقينا » ، و « لأنه يحمينا » و « لأنه هدانا إلى الحق » ، و « لأنه وهب لى البصر » . أجابت طفلة واحدة إنها تخشى الله فقط ولم تبين السبب وهن يخفن منه « لأن عذابه شديد » ، و « لأنه قادر على كل شىء » الخ . . .

٣ — إوصفى الجنة والنار (لم يخرج الوصف عن الوصف الذى ورد فى حديثى مع الطفلين السالفى الذكر .)

٤ — من هم الملائكة ؟ إوصفيهم . (لم تختلف الأجوبة كثيراً عن أجوبة الطفلين السابقين : مخلوقات جميلة ذات أجنحة ، جميلات بملابس بيضاء قادرات على الطيران الخ . . .)

الصفات العامة للدين عند الأطفال

أولا : يضفى الطفل على موضوعات الدين وجوداً واقعياً ، فالدين فى الطفولة يمتاز بأنه (realistic) : فالله ، والملائكة ، والشياطين ، والجنة ، وجهنم موجودات حقيقية ، ووجودها وجود حسى مشخص ؛ والطفل يتصور هذه الأمور جميعاً على نحو تصوره للموجودات الحسية المشخصة . ويصدق هذا القانون على غالبية الأطفال قبل سن الخامسة عشرة . وجميع ما بلغنى من إجابات الأطفال وما استمعت إليه من أحاديثهم تبين أن تصورهم لله (خاصة فى مرحلة الطفولة الباكرة) لا يخرج عن أن يكون رجلا مسناً وقوراً بلحية بيضاء ، ويتصوره آخرون بأجنحة ويزين وجهه تاج جميل . وهذه الصورة الحسية التى يكونها الطفل عن الله يستقيها مما يرى من الأشياء المحيطة به ، ويلونها بعواطفه وانفعالاته فهى تعكس نفسيته بحيث نستطيع إن نحن عرفنا تفاصيل هذه الصورة الحسية أن نعرف موقف الطفل من الله : هل هو موقف الحب أم هو الخوف والرهبة ، ونستطيع كذلك أن نعرف موقفه من السلطة التى غرست فى نفسه هذه المشاعر تجاه الدين . يسهل علينا إذن إذا كان لدينا طفل يتصور الله رجلا قوياً جباراً بنظرات حادة يسوق أمامه مجموعة

من الناس إلى جهنم ، وطفل اخر يتصوره أباً وقوراً مسناً بلحية بيضاء وأجنحة جميلة أن ندرك أن موقف الأول من الله هو موقف الخوف المشوب بنوع من الكراهية للسلطة التى تربى فى كنفها ، وموقف الثانى موقف المحبة والإجلال لله والاطمئنان إلى السلطة ، وندرك أن الأول يفتقد إلى الهدوء والأمن الانفعالى وأن الثانى يتمتع بهما . والأمر فى الحالين يعزى إلى ظروف التربية الأولى .

المفهومات الدينية فى ذهن الطفل مجرد صور حسية خيالية ، ولا تنطوى على معان واضحة . فوجئ طفل فى الخامسة والنصف من عمره (وهو الطفل الذى أشرنا إليه فى مستهل هذا المقال وقد عاش فى الاسكندرية أيام الغارات) برؤية أشعة الأنوار الكاشفة تحوم فى سماء المدينة وقد سادها ظلام الليل وكل ما يحيط بنا يثير الرهبة فى نفوس الكبار بله الصغار . سألنى بعد فترة من التفكير الأخاذ :

— أليست هذه هى الملائكة ؟

وقد وجدت صعوبة غير قليلة فى إقناعه بحقيقة هذه الأنوار ، ولم يقتنع إلا بعد أن مثلت له عمل هذه المصابيح الكاشفة بإضاءة بطارية وتحريكها فى اتجاهات مختلفة فى حجرة مظلمة .

وشاهد هذا الطفل عينه شيخاً معمماً فأشار إليه قائلا لأبيه : « شوف القران » . إنه لم يستطع أن يدرك مفهوم القرآن من حيث هو كتاب سماوى يحمل تعاليم إلهية إلى البشر ، بل هو بالنسبة إليه كلمات يرتلها شيخ معمم والتبس الأمر عليه حتى أصبح لا يميز بين هذه الكلمات وبين الشيخ الذى يتلوها . وهذا اللبس يتفق مع المستوى الذى بلغه الطفل من النمو العقلى .

ثانياً : يميل الطفل بحكم طوره العقلى إلى أن يضفى على الكائنات جامدة كانت أو حيوانية صفاته الإنسانية . إنه يعتقد أن الشمس أو القمر أو النجوم تتصف بما تتصف به الكائنات البشرية من قدرة وإرادة وفهم ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بموضوعات الدين : فالله بالنسبة إليه رجل كأى رجل ممن يعرفهم ، والملائكة رجال أو نساء جميلات بأجنحة مشروعة ، وبرانس بيضاء هفهافة ، والشياطين مردة قساة غلاظ ، مشوهو الخلقة ينبعث من عيونهم شرر ، وتعلو رؤوسهم قرون فتاكة . وقد يستمد الطفل تصوره للملاك من رجل رآه وأحبه ، أو سيدة تعطف عليه . وقد لا يكون الشيطان لديه إلا صورة محرفة لذلك الجار غليظ القلب الذى رآه يضرب أبناءه بقسوة وحشية والذى ينعته كل من فى المنزل بكل صفات القبح ، أو لتلك المربية

المقيتة التى تقيد حريتها وتقف حائلا دون تحقيق رغباتها الطفلية .

وإذا سألت الطفل عن صفات الله فقد يعدد لك صفات والده دون أن يشعر بذلك شعوراً واضحاً ، ومن هنا كان الأطفال جميعاً من المجسمين أو المشبهة ، على حد قول رجال الفلسفة .

وليس بعجيب تصور الطفل للموضوعات الدينية على هذا النحو من التشبيه والتجسيم ، إذا علمنا أن البشرية قد مرت بهذا الطور الحسى ؛ فقدماء اليونان مثلا — كما يتبين لمن يطالع الإلياذة والأوديسا — تصوروا أن الآلهة يؤلفون على قمة جبل « الأولمب » حكومة ملكية يتزعمها زوس « إله القوة ومدبر البرق الخاطف » ، ويخضع له سائر الآلهة والإلهات[1] ؛ وكل هؤلاء فى صور بشرية ، إلا أن سائلا عجيباً يجرى فى عروقهم فيكفل لهم الخلود ؛ يسكنون فى السماء قصوراً فخمة ينعمون فى ظلالها بحياة رخية ، يأكلون ويشربون ويتزاوجون ، تجرحهم السهام والرماح فيألمون وينتحبون ، لهم شهواتهم وعصبياتهم ، يتفرقون أحزاباً ويتدخلون فى منازعات البشر[2] . وكان المصريون يؤلهون الشمس ويعبدونها على أنها إله قادر على كل شىء مدبر لكل أمر . وهذا أمنحتب الرابع الذى عبد آتون (قرص الشمس) فسمى « أخناتون » (أى روح آتون) ، ينشد مخاطباً قرص الشمس :—

« يا شمس النهار ، يا من تخشاه البلاد القاصية
أنت موجد حياتهم
أنت الذى خلقت فى السماء نيلا
لكى ينزل عليهم ولهم .
يتساقط الفيضان على الجبال كالبحر الزاخر
فيسقى مزارعهم وسط ديارهم .
ما أبدع تدابيرك يا إله الأبدية . . . »

كذلك الفرد فى طفولته ، كالبشرية فى طفولتها لم يخرج بعد من المستوى الحسى إلى المستوى التجريدى فلا يستطيع أن يدرك المعانى المجردة ، كالروح أو القوة الخ . . . بل موضوعات الدين فى ذهنه صور حسية خيالية غير محددة المعالم .

* * *

(١) من الآلهة عند اليونان ذكور ومنهم إناث .
(٢) أنظر كتاب تاريخ الفلسفة اليونانية تأليف الأستاذ يوسف كرم .

ثالثاً : الدين فى هذه المرحلة شكلى صرف (formal) أى أن موضوعاته وتعاليمه لا تخرج عن كونها مجموعة ألفاظ أو عبارات يرددها دون أن يكون لها بالنسبة للطفل دلالة واضحة متميزة ، كما أن العبادة تكون قاصرة على أداء بعض الحركات (الصلاة) دون أن تنطوى فى الغالب على شعور الوجد والتقى الذى يتوفر لدى كثير من البالغين . والألفاظ التى يرددها الطفل مثل « سبحان الله » ، (الله هو الحب » ، « الله أكبر » ، « الصدق منجى » ، « كل من عليها فان » إلخ . . . اكتسبها بالتلقين من الكبار المحيطين به .

رابعاً : صفة النفعية : هذه الصفة التى تغلب على الشعور الدينى فى عهد الطفولة تتسق مع الصفة التى تغلب على الشخصية برمتها فى هذه المرحلة . وهى تمركز اهتمام الطفل حول ذاته (egocentricity) فالصلاة والدعاء والصوم وسائل للحصول على أمانى عزيزة . قد تكون أمنيته الحصول على لعبة شهدها فى أحد الحوانيت ، أو نجاحه فى امتحان الروضة ، أو أن ينقذه الله من عقاب والدته لذنب اقترفه ، أو أن يرجع إليه أباه المتوفى . فالله بالنسبة إليه هو القادر على أن يحقق له من الأمانى ما لا يسع الكبار تحقيقها له . وعيد الميلاد ليس فى نظره احتفالا بذكرى ميلاد المسيح بل يوم سعيد يتلقى فيه الهدايا ، وينعم بشهى الحلوى والفطير ، وتضاء شجرة بالثريات الملونة ، ويعج البيت بالزوار المرحين اللاهين . ورمضان بالنسبة للطفل المسلم ليس إلا فرصة للمرح واللهو بالمصابيح الملونة ، والاستماع لإنشاد « المسحراتى » ، والصراخ عند سماع مدفع الإفطار .

ومن ناحية أخرى كانت الصلاة والدعاء وسيلة يستخدمها الطفل كى يحقق فى نفسه الطمأنينة والأمن الانفعالى ، وكان نقضه لأى أمر من الأوامر الخلقية التى لقنها له الوالدان كافياً لإيقاعه تحت طائلة تأنيب الضمير وإثارة المخاوف فى نفسه من أذى الجن والشياطين ونيران جهنم الحمراء .

* * *

خامساً : العنصر الاجتماعى فى الدين : للدين جاذبيته بالنسبة للطفل ، فالصلاة بمثابة لعب ولهو ، والكبار من الأطفال على وجه الخصوص يهوون أن يؤموا الكنائس (إذا كان ذووهم من المتدينين) أو المساجد مع ذويهم ، أو أقرانهم ، ويتلهى الواحد منهم بالوضوء كما يفعل الكبار ، وبالتلفت فى أرجاء المسجد أو الكنيسة ، يلاحظ القوم فى تعبدهم ويزهو بما يستشعره فى نفسه إذ يفعل ذلك من مساواة بينه وبين

الكبار. إن موقفه من الدين مزيج عجيب من الرهبة والاستطلاع والزهو. ويظل ذهابه إلى أماكن العبادة رهناً بذهاب أقرانه إليها، يجد فى ذلك لذة لا تفترق عن تلك اللذة التى ينعم بها إذ يساهم فى الرحلات أو النوادى والملاعب. فالصلاة أو العبادة على وجه العموم نشاط ذاتى اجتماعى حر يرضى الدافع الفطرى إلى التجمع، والاشتراك فى حياة الجماعة، وهذا هو السر فى جاذبيته.

خاتمـــة

نرى من كل ما تقدم أن الدين فى الطفولة ليس عقائد نظرية أو مذاهب فى عقل الطفل، إنما هو نشاط يرضى مختلف النزعات والميول الفطرية: يرضى نزعته إلى الاستطلاع بما يعطى من تفسيرات لمختلف الظواهر التى تشغل باله كالموت والميلاد والنمو والعواصف والأمطار، وذلك حين يتعذر تفسير هذه الأمور تفسيراً علمياً بذكر العلل القريبة؛ ويرضى ميله إلى اللعب وإلى التجمع بما يتيح له من فرص الاشتراك فى الصلوات الجامعة والاحتفاء بالأعياد الدينية؛ والاستماع إلى قصص الأنبياء والملائكة والشياطين؛ ويرضى ميله إلى التقليد وتأكيد الذات؛ وأهم من ذلك جميعاً أن الطفل يستقى من الإيمان بالله الأمان ويسترد الثقة بالحياة، إذ يحس بضعفه فيجد الراحة فى شعوره بقوة خارقة ساهرة علينا، وبالتالى كان الدافع إلى التدين فى الطفولة دافعاً معقداً غاية التعقيد قوامه الإحساس بالضعف ونشدان الطمأنينة والهدوء الانفعالى.

عبد المنعم عبد العزيز الملیجى

Resume

LE SENTIMENT RELIGIEUX CHEZ L'ENFANT

A. A. El Meleegy

L'auteur se propose d'étudier l'évolution du sentiment religieux chez l'individu depuis l'enfance jusqu'à l'âge adulte. Le présent article est consacré à la période de l'enfance.

Une distinction est tout d'abord faite entre la religion en tant que sentiment complexe et confus de dépendance vis à vis d'une force cachée, et en tant que croyance théorique à caractère purement intellectuel. La croyance est la manifestation intellectuelle du sentiment religieux, et elle n'apparat qu'au dernier terme de l'évolution religieuse de l'individu, processus évolutif qui répète celui de la société.

Le sentiment religieux est commun à tous, ce qui les distingue c'est la croyance; il fait partie intégrante de l'évolution de la personnalité tant au point de vue intellectuel qu'au point de vue affectif et moral.

Cette étude est basée sur des questionnaires et des conversations personnelles avec un groupe d'enfants et sur la lecture de journaux intimes écrits par des adolescents. L'auteur analyse certaines notions religieuses telles que se les repésentent les enfants : la mort, les anges, Dieu et ses attributs, le ciel et l'enfer. De cette étude, l'auteur tire les conclusions suivantes :

1. L'enfant projette sur les objets religieux une existance réelle et concrète.
2. Sa représentation est anthropomorphique.
3. Les connaissances religieuses chez l'enfant ne possède pas dans l'esprit de l'enfant une signification claire; elles sont purement formelles.
4. La religion à ses yeux possède un caractère utilitaire, elle satisfait chez lui des besoins intellectuels et affectifs très importants : les besoins de connaissance, de sécurité et d'affection.
5. La religion étant une activité sociale, ele satisfait chez lui les tendances sociales et de jeu.